

# شوق و حنين للصّادق الأمين



السيرة النبوية الشريفة  
للأطفال

نسخة منقّحة ومدقّقة

تأليف:

أسامة صفراوي

مصنّفات أخرى للمؤلف:

قصص مهارات الحياة (مجموعة قصصية للأطفال)  
المرايا والماء (قصة قصيرة للنّاشئة)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ر د م ك: 0 - 520 - 40 - 9938 - 978

نسخة منقّحة ومدقّقة

"وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، مَنْ  
يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا  
أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا"

النساء (79، 80)

وَتَطِيبُ دَقَّاتُ الْقُلُوبِ بِذِكْرِهِ - - فَتَنْفِضُ شَوْقًا دَافِئًا وَعَمِيمًا  
هُوَ رَحْمَةُ الرَّحْمَانِ أَشْرَقَ بِالْهُدَى - - صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

## نبذة

حوار بين الجدّ الحكيم جمال وحفيده الثّيبه عبد الرّحمان،  
يحكي الجدّ مواقف خالدة من سيرة الصّادق الأمين ﷺ  
ويستخلص الحفيد بعض الاستنتاجات المفيدة.

## مقدمة

مَسَاءَ الْجُمُعَةِ، عُدْتُ مَعَ أَبِي مِنَ الْجَامِعِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ. دَخَلْنَا غُرْفَةَ الْجُلُوسِ، فَوَجَدْنَا جَدِّي جَالٍ يَقْرَأُ كِتَابًا مُجَلَّدًا بِاهْتِمَامٍ. قَبَّلَ أَبِي رَأْسَ جَدِّي، وَجَلَسَ بِجَانِبِهِ وَهُوَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَحْوَالِهِ. ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَى جَدِّي بِفَرَحٍ، وَكُنْتُ أَحِبُّهُ كَثِيرًا فَهُوَ طَيِّبٌ حَكِيمٌ وَالْإِبْتِسَامَةُ لَا تُفَارِقُ وَجْهَهُ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُمْتَعِنَا بِحِكَايَاتِهِ الْجَمِيلَةِ ذَاتِ الْعِبَرِ الْوَفِيرَةِ. ثُمَّ دَفَعَنِي حُبُّ الْإِطْلَاعِ لِمَعْرِفَةِ عُنْوَانِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ، فَسَأَلْتُهُ:

- مَا عُنْوَانُ الْكِتَابِ يَا جَدِّي؟ وَمَا مَوْضُوعُهُ؟

فَأَجَابَنِي مُبْتَسِمًا:

- عُنْوَانُ الْكِتَابِ رِيَاضُ الصَّالِحِينَ. إِنَّهُ كِتَابٌ يَحْتَوِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ شَرِيفَةٍ لِلرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ سَأَلَنِي قَائِلًا:

- مَاذَا تَعْرِفُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟

فَأَجَبْتُ:

- أَعْرِفُ أَنَّهُ كُلَّمَا يُذَكَّرُ يَجِبُ أَنْ أَقُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ جَدِّي:

- وَهَلْ تُحِبُّهُ؟

أَجَبْتُ مُحْتَارًا:

- كَيْفَ أُحِبُّهُ وَأَنَا لَا أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا؟

فَتَدَخَّلَ أَبِي مُلَاحِظًا:

- هَلْ تَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ لَطِيفًا مَعَ الْأَطْفَالِ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ، رَحِيمًا بِهِمْ، نَاصِحًا لَهُمْ؟ وَكَانَ يُعَامِلُهُمْ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ وَيَغْمُرُهُمْ بِالْوُدِّ وَالْحَنَانِ. فَكَانَ ﷺ إِذَا مَرَّ بِالْأَطْفَالِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَيَمْسُحُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ يَتَلَطَّفُ مَعَهُمْ وَيُشْعِرُهُمْ بِالسُّرُورِ وَالثِّقَةِ.

وَكَانَ ﷺ يَرْفُقُ بِالْأَطْفَالِ وَلَا يُكْثِرُ عِتَابَهُمْ بَلْ يَعْذَرُهُمْ وَيَنْصَحُهُمْ، فَقَدْ كَانَ طِفْلٌ فِي حِجْرِ الرَّسُولِ ﷺ يَأْكُلُ مَعَهُ وَكَانَتْ يَدُهُ تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِرَفْقٍ مُرِيًّا: يَا غُلَامَ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ. وَقَدْ كَانَ طِفْلٌ صَغِيرٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَمِيرٍ، يُرِيَّ عُصْفُورًا اسْمُهُ النَّعِيرُ. فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا رَأَاهُ يَقُولُ لَهُ مُدَاعِبًا: يَا أَبَا عَمِيرٍ، مَا فَعَلَ النَّعِيرُ؟!

وَذَاتَ يَوْمٍ، خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حَامِلًا حَفِيدَهُ الصَّبِيَّ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ. فَتَقَدَّمَ ﷺ وَوَضَعَهُ بِجَانِبِهِ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ. فَلَمَّا سَجَدَ ﷺ صَعِدَ الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِهِ يَلْعَبُ، فَمَكَثَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَطَالَ سُجُودَهُ كَيْ لَا يُفْسِدَ عَلَيْهِ لَعِبَهُ، فَلَمَّا قَضَى ﷺ الصَّلَاةَ، تَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ إِطَالَةِ سُجُودِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ فِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ

حَدَّثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ! فَقَالَ ﷺ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ.

وَكَانَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ حَفِيدَةٌ يَتِيمَةٌ اسْمُهَا أُمَامَةُ، فَكَانَ ﷺ يُحِبُّهَا وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا، وَكَانَ يَأْخُذُهَا مَعَهُ أحيانًا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَحْمِلُهَا وَهُوَ يُصَلِّي، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا عَلَى كَتِفِهِ.

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَهْتَمُّ بِالْأَطْفَالِ وَيُشْجِعُهُمْ. وَمِنْ الْأَطْفَالِ الْأَذْكِيَاءِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ الطِّفْلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، عَنْ يَمِينِهِ الطِّفْلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاحُ. فَجِيءَ لِلرَّسُولِ ﷺ بِلَبَنٍ فِي قَدَحٍ، فَسَمَّى اللَّهُ وَشَرِبَ مِنْهُ وَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَاجَابَ الطِّفْلُ بِشَجَاعَةٍ وَأَدَبٍ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أُؤْثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا! فَوَضَعَ الرَّسُولُ ﷺ الْقَدَحَ فِي يَدِهِ وَقَدَّمَهُ عَلَى الْأَشْيَاحِ!

وَحَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ. احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ.



وَقَدْ دَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، فَكَبَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ لِيُصْبِحَ حَبْرَ الْأُمَّةِ وَتُرْجَمَانَ الْقُرْآنِ.

اسْتَمَعْتُ بِإِتْبَاهٍ، وَقَدْ انْطَبَعَ حَدِيثُ أَبِي فِي ذَهْنِي، وَدَخَلَ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ  
ﷺ فِي قَلْبِي.

ثُمَّ قَالَ جَدِّي مُبْتَسِمًا:

— مَا رَأَيْتُكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنْ تُخَصِّصَ مَسَاءَ كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ لِأَقْصَى لَكَ بَعْضُ  
الْمَوَاقِفِ الْعَظِيمَةِ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ؟  
أَجَبْتُ مُبْتَهَجًا:

— طَبْعًا يَا جَدِّي! يَسُرُّنِي ذَلِكَ كَثِيرًا!

مَسَحَ جَدِّي جَمَالَ عَلَى رَأْسِي قَائِلًا:

— اتَّفَقْنَا إِذَنْ يَا بُنَيَّ.

تَبَادَلَ أَبِي وَجَدِّي نَظْرَةً رَاضِيَةً وَابْتَسَمَا بِحُنُوءٍ، أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ  
يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْقَادِمِ لِأَتَعَلَّمَ سِيرَةَ الرَّسُولِ ﷺ.

\* \* \* \* \*

## التواضع والصدق والأمانة

فِي الْأُسْبُوعِ الْمَوَالِي، جَلَسْتُ مَعَ جَدِّي جَمَالٍ فِي شُرْفَةٍ مَنَزَلْنَا الْمُطَلَّةَ عَلَى حَدِيقَةٍ  
فَسِيحَةٍ خَضْرَاءَ تُزَيِّنُهَا أَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ وَأَزْهَارٌ يَانِعَةٌ.  
قَالَ جَدِّي:

- مَا رَأَيْتُكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنْ نَبْدَأَ بِذِكْرِ نَسَبِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَبْدَأَ  
سَرِيعَةً عَنْ سِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ؟

أَوَمَاتُ بِرَاسِي مُوَافِقًا، فَسَكَتَ جَدِّي هُنَيْهَةً، ثُمَّ قَالَ:

- لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ عَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ  
يُرْشِدُونَ النَّاسَ إِلَى خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَأَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ خَمْسَةٌ: نُوحٌ  
الصَّبُورُ الشَّكُورُ، وَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَأَبُو الْأَنْبِيَاءِ، وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ، وَعِيسَى  
الْمُبَارَكُ، وَمُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ  
خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. وَمِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ: أَحْمَدُ،  
الْعَاقِبُ، الْبَشِيرُ، النَّذِيرُ، السَّرَاجُ الْمُنِيرُ. وَلَدَ ﷺ فِي أُمِّ الْقُرَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةَ  
عَامَ الْفِيلِ، وَهُوَ الْعَامُ الَّذِي حَاوَلَ فِيهِ أَبْرَهَةُ صَاحِبُ الْفِيلِ هَدْمَ الْكَعْبَةِ فَخَابَ  
سَعْيُهُ وَأَهْلَكَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَيَنْتَسِبُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ  
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَأُمُّهُ آمَنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ، وَيَعُودُ  
نَسَبُهُ ﷺ إِلَى عَدْنَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَدْ تُوفِّيَ عَبْدُ

اللَّهُ وَالِدُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَلَادَتِهِ. وَأَرْضَعَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَنِي سَعْدٍ فِي الْبَادِيَةِ حَيْثُ ظَهَرَتْ دَلَائِلُ بَرَكَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ تُوفِّيَتْ أُمُّهُ وَعُمُرُهُ سِتُّ سَنَوَاتٍ، فَتَرَبَّى عِنْدَ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَتَّى تُوفِّيَ جَدُّهُ وَعُمُرُهُ ثَمَانُ سَنَوَاتٍ، فَتَرَبَّى عِنْدَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ. وَعَمِلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طِفْلاً فِي رَعْيِ الْغَنَمِ، ثُمَّ شَابًّا فِي التِّجَارَةِ. وَقَدْ شَبَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَفِيفًا كَرِيمَ الْأَخْلَاقِ، وَتَاجَرَ فِي مَالِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَرَزَقَ مِنْهَا جَمِيعَ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ عَدَا إِبْرَاهِيمَ. وَفِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ، نَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللُّوحِ فِي غَارِ حِرَاءٍ. فَدَعَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبَائِلَ مَكَّةَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، لَكِنْ قُوبِلَتْ دَعْوَتُهُ بِالرَّفْضِ وَالْإِيذَاءِ، فَبَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْمُوعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ. وَلَكَمَا اشْتَدَّ الْإِيذَاءُ بِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْمُسْلِمِينَ، أَسْرَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَعَرَجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لِيَعْلَمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِفْعَةَ مَقَامِهِ عِنْدَ رَبِّهِ. أَقَامَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ بَعْدَ الْبُعْثَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَى يَثْرِبَ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَأَسَّسَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ، وَأَقَامَ فِيهَا عَشْرَ سَنَوَاتٍ تَحَلَّلَتْهَا مُوَاجَهَاتُ بَيْنِ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ عُرِفَتْ بِالسَّرَابَا وَالغَزَوَاتِ، وَفَتَحَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ فَتَحًا مُبِينًا، وَتُوُفِّيَ وَدُفِنَ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ.

انْقَسَمَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَكَّةَ إِلَى ثَلَاثِ مَرَاكِحٍ: دَعْوَةٌ خَاصَّةٌ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ فِي مَكَّةَ لِمُدَّةِ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ لِلْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

وَدَعَوْتُهُ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ انْقَسَمَتْ أَيْضًا إِلَى ثَلَاثِ مَرَاكِحٍ: إِصْلَاحُ الْمَدِينَةِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ إِصْلَاحُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِمُدَّةِ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ دَعْوَةٌ عَالَمِيَّةٌ لِكُلِّ الْبَشَرِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ. انْبَهَرْتُ وَقُلْتُ مُسْتَنْتَجًا:

- إِذَنْ فَالْيَتِيمُ لَيْسَ نَفْصًا وَلَا عَيْبًا، بَلْ إِنَّ الطِّفْلَ الْيَتِيمَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْبِحَ إِنْسَانًا عَظِيمًا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ. أَجَابَ جَدِّي مُبْتَسِمًا:

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ، كَمْ مِنْ يَتِيمٍ مَحْرُومٍ نَشَأَ وَشَبَّ لِيُصْبِحَ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَاءِ التَّارِيخِ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْقَاضِي أَبِي يُوسُفَ قَاضِي الْقَضَاةِ، وَالْإِمَامِ الْفَقِيهِ الْأَوْزَاعِيِّ إِمَامِ الْعَيْشِ الْمُشْتَرَكِ. وَفِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ نَحْدُ أَيْتَامًا عَظَمَاءَ مِثْلَ مَالِكُومِ اكسِ الْمُنَاضِلِ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الشُّوْدِ، وَنَلْسُونِ مَانْدِيلَا الْمُنَاضِلِ فِي سَبِيلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَلِيُو تُولَسْتَوِي الْأَدِيبُ صَاحِبُ الْحِكْمَةِ. تَسَاءَلْتُ:

- حَسَنًا يَا جَدِّي. وَإِلَامَ دَعَا الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ؟ أَجَابَ جَدِّي:

- لَقَدْ دَعَا الرَّسُولُ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشِرِّهِ. وَدَعَا إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ  
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَالْحَجِّ  
إِلَى الْبَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. كَمَا دَعَا ﷺ إِلَى التَّحَلِّيِ بِمَكَارِمِ  
الْأَخْلَاقِ، فَقَدْ قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.

وَمِنْ أَرْوَغِ مَا قِيلَ فِي فَضَائِلِ الْإِسْلَامِ وَمَحَامِدِهِ قَوْلُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ جَعْفَرِ بْنِ  
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ إِذْ يَعْزُضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، قَالَ:  
أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ  
وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ. فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ،  
حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِمَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى  
اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ  
وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ  
وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ  
الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

اسْتَمَعْتُ بِإِتْيَاهِ، ثُمَّ قُلْتُ مُنْهَرًا:

- إِنَّ الْإِسْلَامَ حَقًّا دِينَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَامِدِ. أَخْبِرْنِي يَا جَدِّي عَنْ صِفَاتِ  
الرَّسُولِ ﷺ؟

أَطْرَقَ جَدِّي جَمَالَ مُفَكِّرًا بِضَعِ لَحْظَاتٍ، ثُمَّ اسْتَوَى قَائِلًا:

- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَلَقَ الْوُجْهَ بَسَامًا، صَادِقَ الْعَهْدِ صَدُوقًا، لَبَنَ الْجَانِبِ حَلِيمًا، رَحِبَ الصَّدْرِ مُنْصَفًا، هَادِنًا وَقُورًا، حَيِيًّا صَبُورًا، قَنُوعًا كَرِيمًا، شُجَاعًا حَكِيمًا، رَفِيقًا رَحِيمًا. وَكَانَ ﷺ مُتَوَاضِعًا مُتَفَانًا صَافِي الرُّوحِ مُطْمَئِنِّ النَّفْسِ سَلِيمِ الْقَلْبِ نَيْرَ الْعَقْلِ نَافِذَ الْبَصِيرَةِ، يَرْجُو الْخَيْرَ لِكُلِّ النَّاسِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِهِ: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم 4)

اسْتَمَعْتُ مِنْبَهْرًا وَكَأَنَّ عَلَى رَأْسِي الطَّيْرُ. ثُمَّ قُلْتُ:

- هَلَّا حَدَّثْتَنِي يَا جَدِّي عَنْ تَوَاضُعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

- يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، إِنَّ التَّوَاضُعَ مِنَ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا كُلُّ إِنْسَانٍ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (الفرقان 63)

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. فَقِيلَ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. فَقَالَ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ. وَبَطَرُ الْحَقِّ يَعْنِي عَدَمَ قَبُولِ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ يَعْنِي احْتِقَارَهُمْ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- إِذَنْ فَالتَّوَاضُعُ هُوَ أَنْ أَتَقَبَّلَ الْحَقَّ، وَأَنْ لَا أَحْقِرَ النَّاسَ. وَأَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ تَرِبًا وَلَا يَحْتَقِرُ النَّاسَ فَهُوَ مُتَوَاضِعٌ رَغَمَ تَرَائِهِ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا وَاحْتَقَرَ النَّاسَ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ رَغَمَ فَقْرِهِ.

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ، أَحْسَنْتَ فَهَمَّا. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جَمَّ التَّوَاضُعِ عَلَى رِفْعَةِ قَدْرِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ. فَلَمْ يَكُنْ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ فِي مَجْلِسِهِ عَرْشًا مَلَكِيًّا ضَخْمًا أَوْ كُرْسِيًّا مُتَعَالِيًّا فَخْمًا، بَلْ كَانَ يَجْلِسُ بِسَاطَةِ بَيْنِ أَصْحَابِهِ، يَلْبَسُ مِثْلَمَا يَلْبَسُونَ، وَيَأْكُلُ مِمَّا يَأْكُلُونَ. فَيَأْتِي الرَّجُلُ إِلَى مَجْلِسِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَلَا يَدْرِي أَيُّ الْجَالِسِينَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ! وَكَانَ الصَّحَابَةُ الْكَرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُجِبُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَإِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ لِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ كَرَاهِيَّتِهِ لِدَلِّكَ. وَكَانَ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَرْتَدِيَ الثِّيَابَ الْحَسَنَةَ الْجَمِيلَةَ فِي غَيْرِ خِيَلَاءٍ وَلَا سَرَفٍ.

وَحَدَّثَ أَنْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَاهُ هَابَهُ وَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهْدِنًا وَمُطْمَئِنِّنًا: هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ.

وَكَانَ مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ أَنَّهُ يُشَارِكُ فِي شُؤْنِ الْمَنْزِلِ، فَيَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ: يَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَرْفَعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ. فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. وَكَانَ لَا يَعْيبُ طَعَامًا قَطُّ، فَإِنْ اشْتَهَى طَعَامًا أَكَلَ مِنْهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ، يُسَمِّي اللَّهُ وَيَأْكُلُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَحْمَدُ اللَّهَ. وَكَانَ يَعُودُ الْمَسَاكِينَ، وَيُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ، وَيَسْتَجِيبُ لِلدَّعْوَةِ، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ مَهْمَا كَانَتْ بِسِيطَةً. قَالَ ﷺ: لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كِرَاعٌ لَقَبِلْتُ. هَتَفْتُ مُنْشَرَحًا:

- مَا أَرْوَعَ بَسَاطَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا أَجْمَلَ تَوَاضُعَهُ!

- نَعَمْ يَا بُيَّ. وَمِنْ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الصِّدْقُ وَالْأَمَانَةُ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُلقَّبُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ.

- مَنْ لَقَّبَهُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ وَلِمَاذَا؟

- لَقَدْ لَقَّبَتْ قُرَيْشُ الرَّسُولَ ﷺ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ مُنْذُ رِيعَانِ شَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا رَسُولًا. وَسَابَدًا الْحَدِيثَ بِإِشَارَةِ سَرِيعَةٍ إِلَى قِصَّةِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، ثُمَّ سَاعَوْذُ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي قَادِمِ الْأَيَّامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ حَجَرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، نَزَلَ بِهِ الْمَلَكُ جِبْرِيلُ إِلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِيَضَعَهُ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِقَةِ. وَفِي شَبَابِ الرَّسُولِ ﷺ أَصَابَ جُدْرَانَ الْكَعْبَةِ تَصَدُّعٌ، فَاجْتَمَعَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ لَتَجْدِيدِ بِنَائِهَا، وَشَارَكَتْ فِي عَمَلِيَّةِ الْبِنَاءِ كُلُّ الْقَبَائِلِ. فَلَمَّا بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، اخْتَلَفَ الْقَوْمُ وَتَنَازَعُوا يُرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يَنَالَ شَرَفَ وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَوْضِعَهُ. وَاشْتَدَّ التَّزَاوُعُ وَكَادُوا يَتَفَقَّطُونَ، فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُحْكَمُوا فِي الْأَمْرِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي مَجْلِسِهِمْ، فَوَافَقُوا.

فَدَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ فَهَتَفُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ مُسْتَبْشِرِينَ: الْأَمِينُ ارْتَضَيْنَاهُ!

وَبَعْدَ أَنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيًّا رَسُولًا، صَعِدَ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا، فَنَادَى قُرَيْشًا حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

قُلْتُ مُسْتَنْتَبِحًا:



- مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ يَشْهَدُونَ شَهَادَةً بَيْنَهُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ.

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ أَشَدَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ بُغْضًا وَتَكْذِيبًا لِلرَّسُولِ ﷺ رَغَمَ عَلَيْهِ يَقِينًا بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِي نُبُوتِهِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ أَبُو جَهْلٍ بِصِدْقِ نُبُوتِ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَدْ سَأَلَهُ ابْنُ أُخْتِهِ يَوْمًا: يَا خَالِي، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَ مُحَمَّدًا بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِينَا وَهُوَ شَابٌّ يُدْعَى الْأَمِينُ، فَمَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا قَطُّ. قَالَ: يَا خَال، فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو هَاشِمِ الشَّرَفِ، فَأَطَعُمُوا وَأَطَعَمْنَا، وَسَقَوْا وَسَقَيْنَا، وَأَجَارُوا وَأَجَرْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَائَيْنَا عَلَى الرِّكَبِ فَكُنَّا كَفَرَسَى رِهَانٍ، قَالُوا: مَنَّا نَبِيٌّ. فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟!

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ صَادِقًا فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، حَتَّى فِي وَقْتِ الْمُرَاحِ وَالْفُكَاكَةِ. يَقُولُ ﷺ: إِنِّي لَأَمْرُحٌ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا. فَكَانَ ﷺ يُمَارِحُ أَصْحَابَهُ الْكَرَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَحْمَلَهُ، فَقَالَ ﷺ لِلرَّجُلِ يُمَارِحُهُ: إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدٍ نَاقَةٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ مُتَعَجِّبًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ نَاقَةٍ؟ فَقَالَ ﷺ: وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلُ إِلَّا التُّوقَ؟!

وَحَثَّ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصِّدْقِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، دَقَّهَا وَجَلَّهَا، فَقَالَ ﷺ: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا.

وَأَيُّكُمْ وَالْكَذِبُ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" (التوبة 119)

وَلَقَدْ عُرِفَ الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ النَّاسِ بِأَمَانَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ، فَقَدْ كَانَ عَفِيفًا حَرِيصًا عَلَى أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُقُوقِ لِأَصْحَابِهَا. اشْتَغَلَ فِي التِّجَارَةِ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَى تِجَارَةِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَانْبَهَرَتْ بِأَمَانَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ النَّبِيلَةِ ﷺ.

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَتَّقُونَ بِأَمَانَةِ الرَّسُولِ ﷺ ثِقَةً عَصْمَاءَ لَا تَنْفِصُمُ، فَكَانُوا يَحْتَفِظُونَ عِنْدَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَوَدَائِعِهِمْ. وَحَتَّى بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، كَذَّبَهُ زُعْمَاءُ قُرَيْشٍ وَآذَوْهُ وَتَصَدَّوْا لَهُ، لَكِنَّهُمْ أَبْقَوْا عَلَى أَمْوَالِهِمْ عِنْدَهُ لِعِلْمِهِمُ الْيَقِينَ بِأَمَانَتِهِ الْعَظِيمَةِ! وَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، خَلَفَ عَلَيْهِ ﷺ عَلِيًّا بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ لِتَسْلِيمِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. فَتَأَمَّلْ يَا بَنِي كَيْفَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ مَشْغُولِينَ بِإِيْدَاءِ الرَّسُولِ ﷺ، بَيْنَمَا كَانَ هُوَ مَشْغُولًا بِرَدِّ أَمَانَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ!

وَذَاتَ يَوْمٍ، مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَتَأَلَّتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا. فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ عَلَيْهِ ﷺ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي.

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ التَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ" (المعارج 32 - 35)

فَتَذَكَّرْ دَوْمًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ الْكَذِبَ وَالْغِشَّ وَالْغَدْرَ صِفَاتُ شَنِيعَةٍ مَذْمُومَةٍ لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى التَّبَاغُضِ وَالضَّغِينَةِ وَالْقَطِيعَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَضَيَاعِ حُقُوقِهِمْ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- صَدَقْتَ يَا جَدِّي، وَأَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّ الْغِشَّ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ أَيْضًا أَمْرٌ مَذْمُومٌ.

تَبَسَّمَ جَدِّي جَمَالًا قَائِلًا:

- مُلَاحِظَةٌ ذَكِيَّةٌ يَا بُنَيَّ. بِالطَّبَعِ إِنَّ الْغِشَّ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ الدِّرَاسِيَّةِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ بَلْ مَرْفُوضٌ تَمَامًا، لِأَنَّ النَّجَاحَ بِالْغِشِّ فِي الْإِمْتِحَانِ هُوَ نَجَاحٌ زَائِفٌ بَاطِلٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ. بَلْ إِنَّ مَنْ تَعَوَّدَ عَلَى النَّجَاحِ بِالْغِشِّ حَتَّى إِذَا أَنْهَى مَسِيرَتَهُ الدِّرَاسِيَّةَ وَحَصَلَ عَلَى شَهَادَةٍ جَامِعِيَّةٍ فَهُوَ لَنْ يَشْعُرَ بِالسُّرُورِ، بَلْ سَيَشْعُرُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ وَسَيَحْتَقِرُ نَفْسُهُ. وَتَخَيَّلْ طَبِيبًا أَوْ مُهَنْدِسًا أَوْ قَائِدَ طَائِرَةٍ أَمْضَوْا دِرَاسَتَهُمْ فِي النَّجَاحِ بِالْغِشِّ الْمُتَوَاصِلِ، كَيْفَ سَيَكُونُ أَثَرُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِمْ؟

\* \* \* \* \*

## الحياء والوفاء

فِي الْأُسْبُوعِ الْمَوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- إِنَّ الْحَيَاءَ خُلِقَ إِسْلَامِي نَبِيلٌ، فَلَا نَسَأُ الْحَيَّ يَتَجَنَّبُ الرِّذَائِلَ وَالْقَبَائِحَ، وَيُبَادِرُ إِلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ. وَغَايَةُ الْأَدَبِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ الْإِنْسَانُ مِنَ اللَّهِ. وَحَيَاءُ الرَّجُلِ دَلِيلٌ عَلَى مُرُوءَتِهِ، وَحَيَاءُ الْمَرْأَةِ دَلِيلٌ عَلَى عِفَّتِهَا.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" (التغابن 4)

وَقَالَ ﷺ: الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَقَالَ ﷺ: إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ.

وَقَالَ ﷺ: الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ.

وَفِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، عِنْدَمَا أُسْرِيَ بِالرُّسُولِ ﷺ عَلَى دَابَّةِ الْبَرَقِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَأَشَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرُّسُولِ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّخْفِيفَ، فَخَفَّفَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَتْ خَمْسًا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ثَوَابُ صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ

بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ. فَلَمَّا أَشَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَرَا جَع رَّبَّهُ مَرَّةً أُخْرَى فِي تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ، قَالَ ﷺ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، فَقَدْ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعُذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ أَمْرًا عَرَفَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ فِي وَجْهِهِ. وَقَدْ رُويَ فِي صِفَةِ مَجْلِسِهِ ﷺ أَنَّهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، لَا يَتَنَارَعُونَ الْحَدِيثَ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَكَانَ جُلُ ضَحِكِهِ تَبَسُّمًا ﷺ.

وَكَانَ مِنْ حَيَائِهِ ﷺ أَنَّهُ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ أَمْرٌ سَيِّئٌ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ؟ فَلَا يُخَاطَبُ الرَّجُلُ وَلَا يُوجَّهُ كَلَامُهُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً، حَيَاءً وَرِفْقًا بِهِ كَيْ لَا يُخْرِجَهُ أَمَامَ الْآخَرِينَ، بَلْ يُوجَّهُ ﷺ كَلَامُهُ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ فَيَخْطُبُ قَائِلًا: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟ وَفِي هَذَا السُّلُوكِ النَّبَوِيِّ فَائِدَتَانِ عَظِيمَتَانِ، فَالْنَبِيُّ ﷺ يَتَجَنَّبُ إِخْرَاجَ الرَّجُلِ أَمَامَ النَّاسِ، لِكَنَّهُ يُوجَّهُهُ وَيَنْصَحُهُ مِنْ خِلَالِ تَوْجِيهِ عَامٍ لِكُلِّ النَّاسِ فَتَحْصُلُ الْفَائِدَةُ لِلْجَمِيعِ.

قُلْتُ مُسْتَنْبَجًا:

- إِذَنْ يَجِبُ أَنْ اسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ فِي أَقْوَالِي وَأَفْعَالِي قَبْلَ أَنْ اسْتَحْيِيَ مِنَ النَّاسِ، وَيَجِبُ أَنْ أَكُونَ حَيًّا مُؤَدِّبًا فِي كُلِّ أَحْوَالِي، فَإِذَا تَكَلَّمْتُ أَتَكَلَّمُ بِأَدَبٍ، وَإِذَا جَلَسْتُ أَجْلِسُ بِأَدَبٍ، وَإِذَا مَشَيْتُ أَمْشِي بِأَدَبٍ. وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ أَحَدًا أَصْدِقَائِي أَنْصَحُهُ عَلَى انْفِرَادٍ كَيْ لَا أُخْرِجَهُ.

- أَحَسَّنْتَ يَا بُنَيَّ.

- حَسَنًا يَا جَدِّي. أَخْبَرَنِي عَنْ خُلُقِ الْوَفَاءِ فِي شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- الْوَفَاءُ يَا بُنَيَّ هُوَ صِيَانَةُ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالْإِعْتِرَافُ بِالْجَمِيلِ، وَحِفْظُ الْوُعُودِ وَالْعُهُودِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة 177)

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْعَى الْمَوَدَّةَ لِأَهْلِهِ، وَيَصُونُ الْوُعُودَ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَيَحْفَظُ الْعُهُودَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ.

أَبْدَأُ بِذِكْرِ وَفَائِهِ لِرُزُوجَتِهِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَزَوَّجَهَا ﷺ فَكَانَتْ لَهُ نِعَمَ الزَّوْجَةِ وَخَيْرَ الْعَوْنِ فِي بَدَايَةِ بَعْثَتِهِ، وَآزَرَتْهُ وَسَانَدَتْهُ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَمَا بَدَأَ نُزُولُ الْوَحْيِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي غَارِ حِرَاءَ، وَكَانَ مُوقِفًا شَدِيدًا عَصِييًا، فَزِعَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَعَ إِلَى زَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ وَجَلًّا يَرْجِفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ: زَمَلُونِي، زَمَلُونِي. فَزَمَلَتْهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوعُ، وَأَخْبَرَهَا بِالْحَدَثِ الْجَلِيلِ وَقَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ لَهُ بِنَبَرَةِ الزَّوْجَةِ الْحُنُونِ الْوَاتِقَةِ: كَلَّا! أَبَشِّرْ، فَوَاللَّهِ

لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا! إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحْمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُوَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِئُ الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

وَقَدْ حَفِظَ النَّبِيُّ ﷺ لِزَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَوَاقِفَهَا الْجَلِيلَةَ، فَلَمْ يَنْزَوِجْ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهَا إِكْرَامًا لَهَا، وَكَانَ يَذْكُرُهَا بِالْخَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَيَصِلُ أَقْرَبَاءَهَا، وَيُحَسِّنُ إِلَى صَدِيقَاتِهَا، وَهَذَا كُلُّهُ وَفَاءٌ لَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَقَالَ ﷺ عَنْهَا: إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حُبَّهَا.

وَتَزَوَّجَ الرَّسُولُ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَمِنْ زَوَّجَاتِهِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهَا.

وَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَنَاعَ لَذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حُمَرَاءِ الشُّدَقِيِّنَ، هَلَكْتُ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا. فَعَضِبَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ: مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسْتَنِي بِمَا لَهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ.

- وَمَنْ هُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَعَدُّدِ أَزْوَاجِهِ ﷺ؟

- أَرْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ إِحْدَى عَشْرَةَ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَسَوْدَةُ بِنْتُ زُمْعَةَ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَجُؤَيْرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ، وَصَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ، وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ. وَهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ. وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَرْوَاجُهُ ﷺ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ يَطُولُ شَرْحُهَا، فَمَثَلًا كَانَ زَوْاجُهُ ﷺ مِنْ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِكْمَةً هِيَ إِبْطَالُ عَادَةِ النَّبِيِّ الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَتَزَوَّجَ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتُ زُمْعَةَ الْأَزْمَلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رِفْقًا بِحَالِهَا وَشَفَقَةً عَلَيْهَا وَحِفْظًا لِإِسْلَامِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُسِنَّةً غَيْرَ ذَاتِ جَمَالٍ.

أَوَمَاتٌ مُتَفَهِّمًا، فَاسْتَطَرَدَّ جَدِّي قَائِلًا:

- وَمِنْ وَفَائِهِ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي رَعَاهُ وَحَمَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَى إِبْلَاجِ دَعْوَتِهِ، لَمَّا حَصَرَتْ الْوَفَاةُ أَبَا طَالِبٍ حَرِصَ الرَّسُولُ ﷺ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَى إِنْقَادِهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ حَتَّى حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمِّهِ بَعْضُ زُعَمَاءِ قُرَيْشِ الْمُشْرِكُونَ.

وَلَمْ يَنْسَ ﷺ فَضْلَ أَصْحَابِهِ الْكَرَامِ الَّذِينَ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ وَآزَرُوهُ وَسَانَدُوهُ، فَهُوَ دَوْمًا يَدْعُوهُمْ وَيُوصِي بِهِمْ خَيْرًا، فَيَقُولُ ﷺ: احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي.



وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَذْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ وَفَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَهْدِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ صَلَاحِ الْحُدَيْيَةِ، إِذِ اتَّفَقَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو مَندُوبِ قُرَيْشٍ عَلَى عِدَّةِ بُيُودٍ، وَمِنْ بُيُودِ هَذَا الصَّلَاحِ أَنَّ أَيَّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ ذَاهِبًا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِبُ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قُرَيْشٍ. وَبَيْنَمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ بَقِيَّةَ الْبُيُودِ إِذْ جَاءَ مُسْلِمٌ يَتَعَثَّرُ فِي قُيُودِهِ، فَإِذَا هُوَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ رَاغِبًا فِي اللَّحَاقِ بِالْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ. فَقَالَ: إِذَا لَا أَصَاحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. فَرَفَضَ سُهَيْلٌ تَسْلِيمَ أَبِي جَنْدَلٍ لِلْمُسْلِمِينَ رَغْمَ إِصْرَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي جَنْدَلٍ: يَا أَبَا جَنْدَلٍ! إِصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا. إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صَلَاحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطُونَا عَهْدَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ بِهِمْ.

\* \* \* \* \*

## القناعة والكرم

في الأسبوع المُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- الْقَنَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ رِضَا الْإِنْسَانِ بِمَا لَهُ، وَتَعَفُّهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ. وَالْقَنَاعَةُ فِعْلًا كَنْزٌ لَا يَفْنَى، لِأَنَّهَا تُحَقِّقُ الرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ فِي النَّفْسِ، وَتَحْمِي الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْأَطْمَاعِ وَالْأَحْقَادِ وَالْمَفَاسِدِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (التَّحَلُّ 97) وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ.

وَلَحَّصَ النَّبِيُّ ﷺ سِرَّ الْقَنَاعَةِ فِي كَلِمَاتٍ بَسِيطَةٍ جَامِعَةٍ فَقَالَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا.

وَقَالَ ﷺ: اِرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ.

وَقَالَ ﷺ: اُنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَعَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ أَحَبَّهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: ارْزُقْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَارْزُقْ فِي مَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَنُوعًا رَاضِيًا، زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا. وَقَدْ خَيَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا نَبِيًّا، فَاخْتَارَ ﷺ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا. وَقَدْ تُوفِّيَ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا أَكَلَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ إِلَّا أَحَدَهُمَا تَمَرٌ. وَقَالَتْ: مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَحَشَوُهُ لَيْفٌ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. فَتَنَظَّرْتُ فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهَا قَبْضَةٌ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلَهَا قَرُطًا فِي نَاحِيَةِ الْعُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، فَبَكَيْتُ. فَقَالَ ﷺ: مَا يُبْكِيكَ يَا بَنُ الْحَطَّابِ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرٌ وَكَيْسَرِي فِي الثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. فَقَالَ ﷺ: يَا ابْنَ الْحَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَهُمْ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى.

وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَضِيلَةِ الْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَحَارَبَ رَذِيلَةَ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ. فَقَدْ ذَهَبَ الصَّحَابِيُّ حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَانِيَةً فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَالِثَةً

فَأَعْطَاهُ، وَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَبِّيًا: يَا حَكِيم، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ. وَالْيَدُ الْعُلْيَا (الَّتِي تُعْطِي) خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى (الَّتِي تَأْخُذُ). فَكَانَ حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ هَذَا الْمَوْقِفِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا وَلَا يَقْبَلُ عَطَاءً مِنْ أَحَدٍ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- إِذَنْ فَالسَّعَادَةُ يَا جَدِّي لَيْسَتْ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ.

- أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ، فَسَعَادَةُ الْإِنْسَانِ لَا تُحَقِّقُهَا كَثَرَةُ الْأَمْوَالِ، وَلَا الْقُصُورُ الْفَاحِشَةُ، وَلَا السَّيَّارَاتُ الْفَارِهُةُ. بَلْ إِنَّ سِرَّ السَّعَادَةِ الْحَقَّةِ هُوَ الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ التَّحَلِّي بِالْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ النَّبِيلَةِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ.

أَوْمَأْتُ مُوَافِقًا، ثُمَّ قُلْتُ:

- حَدَّثَنِي عَنْ كَرَمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا جَدِّي.

قَالَ جَدِّي:

- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ وَأَكْرَمَهُمْ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ، فَهُوَ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، إِذَا كَانَ يُعْطَى عَطَاءً مَنْ لَا يَحْتَسِي الْفَقْرَ، وَاتَّقَا بِفَضْلِ اللَّهِ الْوَاسِعِ مُؤْمِنًا بِاسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاقِ. فَلَمْ

يَكُنْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ سَائِلًا أَوْ مُحْتَاجًا، مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمِثْلٍ  
مِنْ الْقَوْلِ.

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّيْنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ  
وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا شَيْءٌ أَرْصِدُهُ لِدَيْنٍ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَأَلَّفُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ الْجُدُدَ بِالْعَطَايَا. فَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ  
فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا قَوْمُ أَسْلِمُوا،  
فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ!

وَأَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ  
سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ  
فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ  
يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ.

وَقَدْ جِيءَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَالٍ كَثِيرٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: أَنْشُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ.  
وَخَرَجَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ  
إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَمَا قَامَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَمَّ مِنْهُ دِرْهَمٌ.

وَكَانَ لِكَرَمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثَرٌ بَالِغٌ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، فَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ  
قَاصِدِينَ الْعُودَةَ بِالْأَمْوَالِ، وَسُرْعَانَ مَا تَنْشَرُحُ صُدُورُهُمْ لِلْإِسْلَامِ فَيَنْفِذُ إِلَى  
قُلُوبِهِمْ. يَقُولُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ لَهُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا،  
فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا!

وَإِذَا أَحَسَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَاجَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْعَطَاءَ بِطَرِيقَةٍ  
 ذَكِّيَّةٍ تُرَاعِي مَشَاعِرَهُ وَلَا تُوقِعُهُ فِي الْإِحْرَاجِ. كَمَا فَعَلَ مَعَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ  
 اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَمَا كَانَا عَائِدَيْنِ مِنَ إِحْدَى الْغَزَوَاتِ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ  
 بِفَقْرِ جَابِرٍ وَاحْتِيَاجِهِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْهُ بَعِيرَهُ. وَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ أَمَرَ بِإِلَاقَةِ جَابِرٍ إِلَى جَابِرٍ مَالَهُ وَيَزِيدَهُ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ بَعِيرَهُ.  
 وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحْتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى فَضِيلَةِ الْكَرَمِ: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى  
 تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (آل عمران 92)

\* \* \* \* \*

## الصَّبْرُ والتَّفَاقُلُ

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- مِنْ مَعَانِي الصَّبْرِ يَا بُنَيَّ أَنْ لَا يَجْزَعَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ نُزُولِ الْمَصَائِبِ وَالْمِحَنِ، بَلْ يَتَصَبَّرَ بِالْإِيمَانِ وَيَسْتَمْسِكُ بِالثِّقَةِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُكْمَتِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، وَشِعَارُ الصَّابِرِينَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَلَبِئْسَ لَكُمْ بَشِيرٌ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (البقرة 155، 156)

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَثْقَلَ النَّاسِ هَمًّا لِكِنَّةِ كَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ صَبْرًا، بَلْ لَقَدْ كَانَ ﷺ أَكْثَرَ النَّاسِ تَبَسُّمًا، فَقَدْ كَانَ لَا يُرَى إِلَّا بِاسِمًا ﷺ.

وَلَقَدْ تَعَرَّضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مَكَّةَ إِلَى أَدَى شَدِيدٍ مِنْ زُعَمَاءِ الْكُفَّارِ، وَلَكِنَّهُ ﷺ كَانَ حَكِيمًا وَلَهُ بُعْدُ نَظَرٍ، فَلَمْ يُقَابِلِ الْإِيذَاءَ بِالْمِثْلِ، بَلْ صَبَرَ عَلَى أَدَى قُرَيْشٍ وَحَثَّ أَصْحَابَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَعَدِمَ رَدَّ الْأَذَى.

وَقَدْ اخْتَارَ ﷺ أَنْ لَا يَرُدَّ الْإِيذَاءَ بِالْإِيذَاءِ كَيْ لَا تَحْدُثَ مَعَارِكُ طَاحِنَةٌ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُحِبُّ وَطَنَهُ كَثِيرًا وَيَسْعَى لِحِمَايَتِهِ مِنَ الصَّرَاعَاتِ. قَالَ ﷺ عِنْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ: مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ.

قُلْتُ مُسْتَنْجَا:

- إِذَنْ فَمِنْ وَاجِبِ الْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ وَطَنَهُ وَيَعْمَلَ عَلَى حِمَايَتِهِ وَالذُّودَ عَنْهُ  
وَالْمُسَاهِمَةَ فِي تَطَوُّرِهِ وَازْدَهَارِهِ.

تَبَسَّمَ جَدِّي قَائِلًا:

- أَحْسَنْتَ فَهَمَّا يَا بُنَيَّ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُصَلِّي فِي  
مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَرِفَاقُهُ جَالِسُونَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ  
بِسَلَا جَزُورٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَذَهَبَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ  
بِالْأَوْسَاحِ، فَانْتَظَرَ حَتَّى سَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ فَوَضَعَهَا عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ.  
فَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ يَتَضَاكُونَ وَيَتَمَائِلُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَشْرَفَ الْخَلْقِ  
عليه وسلم سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَطَرَحَتْ  
عَنْ ظَهْرِهِ الْأَذَى وَهِيَ تَبْكِي.

وَقَدْ تَمَادَى كُفَارُ قُرَيْشٍ فِي إِيْدَاءِ الرَّسُولِ ﷺ إِيْدَاءً شَدِيدًا، فَبَيْنَمَا كَانَ  
عليه وسلم يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ شَقِيٌّ فَلَوَى ثَوْبَهُ وَوَضَعَهُ فِي عُنُقِ الرَّسُولِ  
عليه وسلم فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى أَخَذَ  
بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ قَائِلًا: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ؟!

وَلَقَدْ رَمَى الْمُشْرِكُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِأَقْبَحِ الصِّفَاتِ وَأَشْنَعِ التُّعُوتِ ظُلْمًا وَإِثْمًا  
وَبُهْتَانًا، فَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ كَاهِنٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ، لَكِنَّهُ قَابَلَ الْإِسَاءَةَ وَالظُّلْمَ  
بِالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ. فَقَدْ كَانَ عليه وسلم مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ رَحِيمًا بِهِمْ حَرِيصًا عَلَى



إِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ. وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ الْعَزِيزُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِكْرَهُ، وَكَفَّاهُ شَرَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

بَلْ لَقَدْ كَانَ مِنْ ظُلْمِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَعُدُوَانِهِمْ أَنْ حَاصَرُوا الْمُسْلِمِينَ فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَدَامَ الْحِصَارُ الْبَغِضُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ مَرَّتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَالدَّهْرِ لَمَّا فِيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وَعَذَابٍ. يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُودِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِلْبَلَالِ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ.

وَتَوَالَتِ الْأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحِصَارِ، فَمَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَحُوطُهُ وَيَحْمِيهِ، ثُمَّ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي كَانَتْ خَيْرَ مُعِينٍ لَهُ. فَخَرَجَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهْمُومًا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهِ إِلَى الطَّائِفِ الَّتِي تَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ عَشْرَاتِ الْكِيلُومِتَرَاتِ، وَدَعَا قَبِيلَةَ ثَقِيفٍ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَتَطَاوَلُوا عَلَيْهِ وَطَرَدُوهُ، ثُمَّ أَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ فَلَا حَقُّوهُ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالْحِجَارَةِ، حَتَّى دَمِيتَ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ. وَحَاوَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَحْمِيَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَصِيبَ فِي رَأْسِهِ.

ثُمَّ قَرَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ وَهِيَ أَحَبُّ الْأَمَاكِينِ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ أَنْ لَا مُقَامَ لَهُ فِيهَا. فَبَدَأَ يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ الْوَافِدَةِ عَلَى مَكَّةَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ لِيَحْمُوهُ وَيُسَانِدُوهُ وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ عَزْمِهِ وَمُتَابَرَتِهِ أَنَّهُ عَرَضَ دَعْوَتَهُ عَلَى عِشْرِينَ قَبِيلَةً بِصَبْرٍ عَظِيمٍ وَإِصْرَارٍ كَبِيرٍ دُونَ كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ.

فَانْظُرْ يَا بُنَيَّ إِلَى صَبْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ، وَانْظُرْ إِلَى إِصْرَارِهِ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ رَغَمَ الْمَصَاعِبِ وَالْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ. فَهُوَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَسْلِمُ لِلْأَحْزَانِ مَهْمَا تَرَكَمَتْ، فَلَا يَنْتَكِسُ وَلَا يَكْتَسِبُ وَلَا يَنْأَسُ، بَلْ يُحَوِّلُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحُزْنَ إِلَى طَاقَةٍ بِنَاءَةٍ وَيُبَادِرُ فِي الْبَحْثِ عَنْ حُلُولِ مُنَاسِبَةٍ لِلْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ بِإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ وَعَزْمٍ ثَابِتٍ.

- مَا أَعْظَمَ صَبْرَهُ وَمَا أَثْبَتَ عَزْمَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! وَهَلْ كَانَ النَّاسُ يَحْجُونَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَا جَدِّي؟

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ النَّاسُ يَحْجُونَ إِلَى مَكَّةَ حَجًّا وَنَبِيًّا يُقَدِّسُونَ الْأَوْثَانَ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ. وَاسْتَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ، فَكَانَ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَيُنَادِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا! مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أَبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ وَلَكِنَّ أَبَا هَبٍ عَمَّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْشِي وَرَاءَهُ وَيُحْدِرُ النَّاسَ مِنْهُ، فَيَزْدَادُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَمًّا وَعَمًّا، لَكِنَّهُ لَا يَنْهَرُ عَمَّهُ وَلَا يُسِيءُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ صَبَرَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ وَثَابَرَ، وَمِنْ مَوَاقِفِ صَبْرِهِ الْعَظِيمِ وَمُثَابَرَتِهِ الْمُنْقَطِعَةِ النَّظِيرِ أَنَّ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَدَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ عَامًا مِنْ دَعْوَتِهِ فِي مَكَّةَ كَانَ عَدَدًا قَلِيلًا، كَانُوا قَلِيلِي الْعَدَدِ عَظِيمِي الْمَكَانَةِ. فَانْظُرْ يَا بُنَيَّ وَتَأَمَّلْ فِي إِرَادَتِهِ الرَّاسِخَةِ وَعَزْمِهِ الَّذِي لَا يَلِينُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وَبَعْدَ مَسِيرَةٍ شَاقَّةٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِصْرَارِ وَالْمُتَابَرَةِ، اِلْتَقَى الرَّسُولُ ﷺ نَفَرًا مِنَ الْخَزَرَجِ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ. فَجَالَسَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَأَجَابُوهُ لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَسْلَمُوا. وَفِي الْعَامِ الْمُؤَالِي قَدِمَ وَفْدٌ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى، وَأَرْسَلَ ﷺ مَعَهُمْ إِلَى يَثْرِبَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَلِّمُهُمُ الْإِسْلَامَ وَيَدْعُو إِلَيْهِ. وَفِي الْعَامِ الْمُؤَالِي قَدِمَ مِنْ يَثْرِبَ وَفْدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، فَاجْمَعُوا عَلَى حِمَايَتِهِ وَمُسَانَدَتِهِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ. ثُمَّ كَانَتْ هِجْرَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِبَدْءِ مَرَحَلَةِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

قُلْتُ مُنْبَهَرًا:

- سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيُّ صَبْرٍ هَذَا وَأَيَّةَ مُتَابَرَةٍ هَذِهِ!

- سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "إِنَّمَا يُؤَقِّ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (الزمر 10)

وَقَدْ صَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ فَاجَأَتْهُ الْأَقْدَارُ بِمَوْتِ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ. فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الذُّرِّيَّةِ سَبْعَةٌ، تَوَالَى مَوْتُهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فَصَبَرَ ﷺ صَبْرًا جَمِيلًا، وَبَكَى يَوْمَ مَوْتِ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ.

– إِذَنْ فَالْصَّبْرُ يَا جَدِّي لَا يَعْني عَدَمَ الْحُزْنِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَدَمُ الْمُبَالَغَةِ فِي الْحُزْنِ، وَأَنْ لَا نَقُولَ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، كَأَنْ نَقُولَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

– نَعَمْ يَا بُيَّ.

– حَسَنًا يَا جَدِّي. حَدِّثْنِي عَنْ تَفَاؤُلِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

– التَّفَاؤُلُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَتَوَقُّعُ الْخَيْرِ، وَالْحَيَاةُ تَطِيبُ بِالتَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ. فَالْمُتَفَائِلُ لَا يَسْمَحُ لِلْمَصَائِبِ أَنْ تَرْمِي بِهِ فِي مُسْتَنْقَعِ التَّشَاؤُمِ، بَلْ هُوَ يَرَى فِي الْمِحْنَةِ مَنَحَةً، وَيُبْصِرُ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَتَلَأَلُ مِنْ خِلَالِ السُّحُبِ الْكَثِيفَةِ، وَنُورَ الْفَجْرِ يَنْبُلِجُ مِنْ قَلْبِ الظَّلَامِ الْحَالِكِ. وَمَنْ التَّفَاؤُلُ أَنْ لَا يَسْمَحَ الْإِنْسَانُ لِلْإِحْبَاطِ أَنْ يُحْطِمَهُ، وَلَا لِلْيَأْسِ أَنْ يُسَيِّطِرَ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَبَّ لِلشَّيْطَانِ مِنْ حُزْنِ الْمُؤْمِنِ. وَالْمُتَفَائِلُ لَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، بَلْ يَرْجُو عَوْنَ اللَّهِ وَتَوْفِيقَهُ، وَيَعْتَصِمُ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ رَاجِيًا الْفَرَجَ وَالْخَيْرَ.

لَكِنْ احْذَرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، يَجِبُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ التَّفَاؤُلِ وَطُولِ الْأَمَلِ، فَالتَّفَاؤُلُ وَالطُّمُوحُ خَصْلَتَانِ مَحْمُودَتَانِ، أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَهُوَ أَمْرٌ مَذْمُومٌ. وَقَدْ لَخَّصَ الشَّاعِرُ هَذَا الْفَرْقَ فِي بَيْتٍ شِعْرِيٍّ جَمِيلٍ:

اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا – – وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا

وَالْتَّفَاؤُلُ الْمَحْمُودُ لَا يَكُونُ بِالتَّكَاسُلِ وَالتَّقَاعُسِ، بَلْ يَكُونُ بِالْجِدِّ وَالْإِحْيَادِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ ثُمَّ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (الطلاق 2، 3)

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالِي خَيْرٌ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً.

وَقَالَ ﷺ: لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْقَالَ. وَالطَّيْرَةُ هِيَ التَّشَاوُؤُ، وَالْقَالَ هُوَ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ الطَّيِّبَةُ.

وَقَالَ ﷺ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ.

وَقَالَ ﷺ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. إِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.

وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَفَانِيًّا طَمُوحًا فِي كُلِّ أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَلَهُ بَصِيرَةٌ نِيرَةٌ وَبُعْدُ نَظَرٍ، فَكَانَ فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ وَأَخْلَكِ الْمَوَاقِفِ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ مُسْتَمِدًّا تَفَاؤُلَهُ مِنْ مَعِينٍ لَا يَنْصَبُ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ الْحَكِيمِ الْكَرِيمِ.

- أَسْتَنْجِ يَا جَدِّي أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَوْمًا مُتَفَانِيًّا. وَأَسْتَنْجِ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَبَتِ الْإِمْتِحَانَاتُ يَجِبُ أَنْ أَبْدَلَ قُصَارَى جُهْدِي فِي الْمَرَاجَعَةِ، ثُمَّ لَا أَعْتَمِدُ عَلَى مُرَاجَعَتِي وَحِفْظِي، بَلْ أَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَأَدْعُوهُ بِالنَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ.

- أَحْسَنْتَ فَهَمًّا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. وَمِنْ أَمَثَلَةِ تَفَاؤُلِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، عِنْدَمَا مَكَثَ فِي غَارِ ثَوْرٍ مَعَ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَقْبَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى الْغَارِ فِي طَلَبِهِمْ. يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِنَا وَلَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمِيهِ! فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَهْجَةِ الْوَاتِقِ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا!

وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، اتَّفَقَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى حَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَوْقِفًا عَصِيًّا. وَأَثْنَاءَ الْحَفْرِ، اشْتَكَى الصَّحَابَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَخْرَةً ضَخْمَةً صُلْبَةً لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَكْسِيرَهَا. فَجَاءَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً كَسَرَ مِنْهَا ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَبْصُرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ:

اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارَسَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا  
الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرْبَ ضَرْبِهِ كَسَرْتُ الثَّلَاثَ  
الْأَخِيرَ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ  
مِنْ مَكَانِي هَذَا.

فَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ ضِعَافُ الْإِيمَانِ فَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ قَائِلِينَ: مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا كُنُوزَ الدُّنْيَا،  
وَأَحَدُنَا لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ!  
لَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِعْلًا فِي مَوْقِفٍ حَرَجٍ مُحَاصِرِينَ يُوَاجِهُونَ الْمَصَاعِبَ وَالْخَوْفَ  
وَالْجُوعَ!  
هَتَفْتُ مُتَعَجِّبًا:

- أَهْلِيهِ الدَّرَجَةِ كَانَ الْمَوْقِفُ عَصِيًّا؟!

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ، وَلَكِنَّ تَقَاوُلَ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ أَقْوَى مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُنَافِقِينَ،  
وَتَقَتُهُ فِي رَبِّهِ رَاسِخَةٌ، وَحُسْنُ ظَنِّهِ بِهِ لَا يَتَذَبَذَّبُ. وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ، وَتَتَحَقَّقُ  
بِشَارَاتُهُ ﷺ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ بْنُ  
الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَفِي قِصَّةِ إِسْلَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لَهُ ﷺ: أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا  
الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعُهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ  
رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟ فَأَجَابَ عَدِيّ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ  
ﷺ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الطَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ

حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ، وَلَيْفَتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ. قَالَ  
عَدِي مُتَعَجِّبًا: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ؟ قَالَ ﷺ: نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ. وَلَيْسَ ذَلِكَ  
الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ.

وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ، وَيَقُولُ عَدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَهَذِهِ الطَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ  
الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيْمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ  
هُرْمُزٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا!!  
وَلَقَدْ تَحَقَّقَتْ بِشَارَةِ الرَّسُولِ ﷺ الثَّالِثَةُ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَلِيفَةِ  
الرَّاشِدِ الْخَامِسِ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ يُخْرِجُ بَرَكَاتِ مَالِهِ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ  
يَقْبَلُهَا!

\* \* \* \* \*



## الحكمة والشجاعة

في الأسبوع المُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ حَكِيمًا مُتَبَصِّرًا، وَفِي سِيرَتِهِ مَوَاقِفُ كَثِيرَةٌ لِحُكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ وَنَبِيرَتِهِ النَّافِذَةِ. أَتَذْكُرُ قِصَّةَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟

- نَعَمْ يَا جَدِّي. لَقَدْ وَصَلْتَ فِي حِكَايَتِهَا إِلَى هُتَافِ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ عِنْدَ دُخُولِ الرَّسُولِ ﷺ: الْأَمِينُ ارْتَضَيْنَاهُ!

- أَخْبَرْتُكَ أَنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ اخْتَصَمُوا خُصُومَةً شَدِيدَةً وَأَوْشَكُوا عَلَى الْإِقْتِسَالِ، ثُمَّ ارْتَضَوْا الصَّادِقَ الْأَمِينَ ﷺ حَكَمًا بَيْنَهُمْ. فَقَالَ ﷺ: هَلُمُّ إِلَى ثَوْبًا. فَأَنِي بِهِ، فَوَضَعَ فِيهِ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: لِنَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا. فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِالْحَجَرِ الْأَسْوَدَ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ ﷺ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ. فَاَنْظُرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِلَى سُرْعَةِ بَدِيهِهِ الرَّسُولِ ﷺ، فَيَعْقِلُهُ الرَّاجِحَ وَتَفَكِّرُهُ الْحَكِيمَ حَسَمَ ﷺ الْخِصَامَ بَيْنَ قَبَائِلِ مَكَّةَ، وَأَرْضَاهُمْ جَمِيعًا، وَجَبَّ بَلَدَهُ وَقَوْمَهُ قِتَالًا حَامِيًا.

وَبَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ وَبَدْءِ الدَّعْوَةِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران 159)

وَمِنْ ذَلِكَ مَوْفِقُهُ مَعَ صَاحِبِ حِكْمَةِ لُقْمَانَ، فَقَدْ دَعَاهُ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: فَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِيَ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: حِكْمَةُ لُقْمَانَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِعْرِضْهَا عَلَيَّ. فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ ﷺ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ، وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَرَأَى أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ. فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَقَوْلُ حَسَنٍ.

وَمِنْ أَمَثَلَةِ قُدْرَتِهِ الْفَذَّةَ عَلَيْهِ ﷺ عَلَى الْمُحَاوَرَةِ وَالْإِقْنَاعِ مَا كَانَ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ الْمُنْدِرِ. إِذْ جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى الْحُصَيْنِ، فَقَالُوا لَهُ: كَلِّمْ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنَّهُ يَشْتُمُ آهَتَنَا وَيَسُبُّهَا. فَدَخَلَ حُصَيْنٌ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ عَلَيْهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَوْسِعُوا لِلشَّيْخِ. فَجَلَسَ حُصَيْنٌ وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْنَا عَنْكَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آهَتَنَا وَتَسُبُّهَا؟ فَاسْتَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَدَبٍ وَحِلْمٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟ قَالَ: سَبْعَةٌ فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ عَلَيْهِ ﷺ: فَإِذَا أَصَابَكَ الضَّرُّ، مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ عَلَيْهِ ﷺ: فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ عَلَيْهِ ﷺ: فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَخَدَهُ، وَتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ! أَرْضَيْتَهُ فِي الشُّكْرِ أَمْ تَخَافُ أَنْ يُغْلَبَ عَلَيْكَ؟ قَالَ: وَلَا وَاحِدَةً مِنْ هَاتَيْنِ. فَقَالَ عَلَيْهِ ﷺ: يَا حُصَيْنُ، أَسْلِمَ تَسْلِمًا. فَكَّرَ حُصَيْنٌ وَقَالَ: إِنَّ لِي قَوْمًا وَعَشِيرَةً، فَمَاذَا أَقُولُ؟ قَالَ عَلَيْهِ ﷺ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَهْدِيكَ لِأَرْشِدِ أَمْرِي وَزِدْنِي عِلْمًا يَنْفَعُنِي. فَقَالَهَا حُصَيْنٌ، فَلَمْ يَقُمْ

حَتَّى أَسْلَمَ. فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُهُ عِمْرَانُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. فَرَقَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَوْقِفَ الْمَوْثِرَ وَبَكَى.

وَمِنْ مَظَاهِرِ حُكْمَتِهِ الْقُدَّةِ أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْشَأَ مَدْرَسَةً فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ يَجْتَمِعُ فِيهَا بِالْمُسْلِمِينَ فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَيُسَجِّعُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَيَأْمُرُهُمْ بِعَدَمِ رَدِّ الْأَذَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يُجَنَّبَ وَطَنُهُ الصِّرَاعَاتِ وَالْمَعَارِكِ.

وَلَمَّا اشْتَدَّ إِيْدَاءُ فُرَيْشٍ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، اقْتَرَحَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْهِجْرَةَ إِلَى الْحَبْشَةِ.

تَسَاءَلْتُ فَأَنَالَ:

- وَلَكِنْ لِمَاذَا اخْتَارَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَادَ الْحَبْشَةِ لِلْهِجْرَةِ دُونَ سِوَاهَا مِنَ الْبُلْدَانِ؟

- كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّ مَلِكَ الْحَبْشَةِ النَّجَاشِيَّ النَّصْرَانِيَّ مَلِكٌ عَادِلٌ، فَاقْتَرَحَ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ صَحَابَتِهِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْ يَهَاجِرُوا إِلَى بِلَادِ النَّجَاشِيِّ، فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ: لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبْشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٌ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. وَحُكْمَتُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبُعْدُ نَظَرِهِ فِي هَذَا الْقَرَارِ يَتَجَلَّيَانِ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ تَخْفِيفَ الْحِصَارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْعَى إِلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ فِي بِلَادِ بَعِيدَةٍ آمِنَةٍ تَكُونُ مَلَاذًا احْتِيَاظِيًّا لِضَمَانِ اسْتِمْرَارِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَانْتِشَارِهِ،

وَيُشَجِّعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْعَالَمِ وَالتَّعَرُّفِ إِلَى ثَقَافَاتِ الشُّعُوبِ  
لِتَنُمُو شَخْصِيَّاتُهُمْ وَيَكُونُوا تَجْرِبَةً ثَرِيَّةً خِصْبَةً فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ حِكْمَةِ الرَّسُولِ ﷺ تَخْطِيطُهُ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْذُهُ بِكُلِّ  
أَسْبَابِ الْحِيطَةِ وَالنَّجَاحِ. فَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ وَكَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ،  
وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ اخْتَارَ خَيْرًا يَدُلُّهُ  
عَلَى الطَّرِيقِ، وَذَهَبَ مَعَ صَاحِبِهِ الصَّدِيقِ فِي طَرِيقٍ مُعَاكِسَةٍ لِلطَّرِيقِ الْمَعْرُوفَةِ  
لِحِدَاعِ الْمَلَاحِقِينَ، وَمَكَّنَا فِي غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَهْدَأَ الْمَلَاحِقَةُ وَتَسْتَقَرَّ  
الْأَوْضَاعُ، وَجَعَلَ ﷺ مِنْ يَأْتِيهِ بِالْأَخْبَارِ وَمَنْ يَأْتِيهِ بِالطَّعَامِ وَمَنْ يَمْحُو آثَارَ  
مَسِيرِهِ وَصَاحِبِهِ.

- مَا أَذْكَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا أَحْكَمَهُ!

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. وَمِنْ أَوَائِلِ الْقَرَارَاتِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي أَصْدَرَهَا ﷺ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ  
بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ الْمُوَاخَاةَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَلِلْمُوَاخَاةِ فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ،  
فَهِيَ تُزِيلُ الْحَوَاجِزَ بَيْنَ الضُّيُوفِ وَالْمُسْتَضِيفِينَ، وَتُمَتِّنُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَهُمْ، فَيَنبَغِي  
الْمُجْتَمَعُ مُتَمَاسِكًا مُتَآزِرًا.

كَمَا يُرَوَى أَنَّهُ اتَّفَقَ ﷺ مَعَ أَهْلِ الدِّمَّةِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ عَلَى مُعَاهَدَةٍ أَشْبَهَ  
بِدُسْتُورٍ يُنْظِمُ عِلَاقَتَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ، وَيَكْفُلُ لَهُمْ حُقُوقَهُمْ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ،  
وَيَقُومُ عَلَى الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ. وَكَانَ  
ﷺ حَرِيصًا عَلَى حِفْظِ حُقُوقِ الدِّمِيِّينَ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: أَلَا

مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ (حَصْمُهُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْإِسْلَامُ يَا بُنَيَّ دِينُ السَّلَامِ. فَلَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْعَنْفِ وَلَا يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْفَوْضَى، بَلْ كَانَتْ دَعْوَتُهُ دَعْوَةً سَلَامٍ. فَكَانَ ﷺ فِي مَكَّةَ لَا يُجْبِرُ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، بَلْ يُطَالِبُ بِالْحُرِّيَّةِ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ. وَفِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَصَحَابَتُهُ الْكِرَامَ يَتَعَاشِقُونَ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَامٍ وَتَسَامُحٍ وَعَدْلٍ مَا لَمْ يَنْقُضُوا بُنُودَ الْمُعَاهَدَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة 256). وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (الكهف 29).

فَالْمُسْلِمُ مُسَالِّمٌ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا وَلَا يَعْتَدِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَلْجَأُ أَبَدًا إِلَى الْعَنْفِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ وَالْعِرْضِ وَالْأَرْضِ. وَالْمُسْلِمُ الْحَقُّ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَهُوَ مِثَالٌ يُجْتَدَى فِي نُبْلِ الْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ كُلِّ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ. قَالَ ﷺ: الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ.

وَيُرْوَى أَنَّ شَيْخًا حَاقِدًا أَثَارَ فِتْنَةً بَيْنَ صَحَابِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ وَصَحَابِيٍّ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَخَاصَمَا وَتَنَارَعَا وَتَنَادَيَا! فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ غَاضِبًا فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ

الْمُسْلِمِينَ! اللَّهُ اللَّهُ! أَيْدَعُوْى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟ أَبَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَلَفَ بِهِ بَيْنَكُمْ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَهَةٌ. فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدٌ، فَندِمُوا وَبَكُوا وَتَعَانَقُوا، ثُمَّ انصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ سَامِعِينَ طَائِعِينَ. فَانْظُرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِلَى حِكْمَتِهِ وَسُرْعَةِ بَدِيهِتِهِ فِي التَّعَامُلِ الْمُنَاسِبِ مَعَ الْمَوَاقِفِ الْعَوِيصَةِ.

- نَعَمْ يَا جَدِّي، كَمَا اسْتَنْتَجَ أَنَّ التَّفَاخُرَ بِالنَّسَبِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ.

- أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ، إِنَّ مَنْ يَفْتَخِرُ بِنَسَبِهِ أَحَقُّ فَهُوَ لَمْ يَحْتَرَهُ، وَمَنْ يَفْتَخِرُ بِشَكْلِهِ أَوْ لَوْنِهِ أَخْرَقَ فَهُمَا لَيْسَا مِنْ صَنِيعِهِ، فَلَا دَخَلَ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ. وَإِنَّمَا يَحِقُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَدَّ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ وَإِنْجَازَاتِهِ النَّبِيلَةِ فَهِيَ نِتَاجُ قَرَارَاتِهِ وَاخْتِيَارَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ حِكْمَتِهِ الْقُدَّةِ وَبُعْدِ نَظَرِهِ ﷺ مَا كَانَ مِنْ صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ. فَقَدْ جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ بِرَأْيِهِ السَّيِّدِ وَبَصِيرَتِهِ الثَّاقِبَةِ مِنْ هَذَا الصُّلَحِ طَرِيقًا إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ. إِذْ يَسَّرَ صَلَاحَ الْحَدِيثِيَّةِ اخْتِلَاطَ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَفَّارِ فِي سَلَامٍ وَأَمَانٍ، وَتَيَسَّرَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ فِي جَوِّ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْإِطْمِئْنَانِ، فَأَعْجَبَ النَّاسُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَفَضَائِلِهِ، فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. لَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَدِيثِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ بَعَدَ عَامَيْنِ فَحَسِبُ دَخَلَ ﷺ مَكَّةَ فَأَخَا فِي عَشْرَةِ آلَافٍ!

- مَا أَرْوَعَ حِكْمَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي التَّعَامُلِ مَعَ مُخْتَلَفِ الْمَوَاقِفِ. أَخْبَرَنِي يَا جَدِّي عَنْ شَجَاعَتِهِ ﷺ.

- الشَّجَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ الْإِفْدَامُ بِثَبَاتٍ وَتَعَقُّلٍ، دُونَ تَهَوُّرٍ أَوْ طَيْشٍ. وَمِنْ مَعَانِي الشَّجَاعَةِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْخَطَا وَطَلَبِ الْعُفُوفِ. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَشْجَعَ النَّاسِ، يَعْتَرِضُ عَلَى الظُّلْمِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَيَقِفُ فِي وَجْهِ الظَّالِمِ دُونَ تَرَدُّدٍ أَوْ خَوْفٍ. وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ اِهْمٍ وَالْحُزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجَبْنِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَعَلَبَةِ الرِّجَالِ.

وَفِي بَدَايَاتِ دَعْوَتِهِ ﷺ، وَقَفَ بِشَجَاعَةٍ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا وَنَادَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَأَعْلَنَ عَلَيْهِمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِإِيمَانٍ رَاسِخٍ وَجَنَانٍ ثَابِتٍ.

- نَعَمْ يَا جَدِّي، عِنْدَمَا قَالُوا لَهُ: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

- وَبَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَاسْتِقْرَارِهِ بِهَا، حَدَثَ أَنَّ سَمِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ صَوْتًا عَالِيًا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَزِعُوا وَأَرَادُوا أَنْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، فَانْطَلَقُوا قَبْلَ الصَّوْتِ، وَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ رَاكِبًا فَرَسًا بِلَا سَرَجٍ، وَقَدْ بَادَرَ وَسَبَقَهُمْ وَحْدَهُ لِاسْتِطْلَاعِ الْأَمْرِ فِي شَجَاعَةٍ بَاسِلَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ نَادِرَةٍ. فَقَالَ هُمْ مُهْدِنًا وَمُطْمَئِنًّا: لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا. يَعْنِي لَا تَخَافُوا وَلَا تَفْزَعُوا.

وَيَصِفُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَجَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَثَبَاتَهُ فِي  
الْغَزَوَاتِ فَيَقُولُ: كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْوُطَيْسُ وَاشْتَدَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ.

وَفِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ أَعْجَبَتِ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ كَثْرَتُهُمْ، فَأَنْهَزُمُوا وَوَلَّوْا عَلَى أَعْقَابِهِمْ  
وَفَرَّ أَكْثَرُهُمْ، أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَثَبَّتَ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِخِ، بَلْ كَانَ مِنْ  
شَجَاعَتِهِ أَنَّهُ يُعْلِنُ عَنْ نَفْسِهِ بِقَلْبٍ لَا يَعْرِفُ الْخَوْفُ إِلَيْهِ سَبِيلًا! فَكَانَ ﷺ  
يَقُولُ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! فَاجْتَمَعَ  
الْمُسْلِمُونَ حَوْلَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَثَبَّتُوا بِثَبَاتِهِ ﷺ وَانْتَصَرُوا.

\* \* \* \* \*



## العدل والتعاون

في الأسبوع المُولي، قَالَ جَدِّي:

- الْعَدْلُ مِنْ مَعَانِيهِ الْإِنْصَافُ وَالْقِسْطُ، وَقَدْ حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَى الْعَدْلِ لِأَنَّهُ قِيَمَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ سَلِيمٍ مُتَوَازِنٍ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء 135)

وَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْمُفْسِدِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَلَّمَا يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا.

وَقَالَ ﷺ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهَا فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

وَأَثَبَتِ النَّبِيُّ ﷺ مَسْئُولِيَّةَ كُلِّ مَنَّا فِي الْعَدْلِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فَقَالَ: أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فَأَلَامِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ

مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ. أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وَحَثَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَلَى التَّوَازُنِ فِي أُمُورِ حَيَاتِهِمْ وَمَنْحِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ دُونَ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفَرِيطٍ. فَقَدْ أَقَرَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادِلًا فِي بَيْتِهِ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ.

وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، فَقَدْ رُويَ أَنَّ نَافَةَ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَتْ بُسْتَانَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْ فِيهِ. فَقَضَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْحَوَائِطِ حِفْظُهَا بِالنَّهَارِ، وَأَنَّ مَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَامِنٌ عَلَى أَهْلِهَا.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ الْأَمْوَالَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبتُ وَخَسِرْتُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ.

وَمِنْ أَرْوَغِ مَوَاقِفِ عَدْلِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِصَّةُ الدِّعِ الْمَسْرُوقَةِ، إِذْ سَرَقَ صَحَابِيٌّ مِنَ الْخُزْجِ دِرْعَ صَحَابِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ، وَشَهِدَ عَلَى السَّارِقِ صَحَابِيٌّ مِنَ الْأَوْسِ. فَأَعْتَمَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّ السَّارِقَ مُسْلِمٌ، فَسَيِّئُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، كَمَا سَتَشْتَعِلُ الْفِتْنَةُ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخُزْجِ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ أَطْفَأَهَا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﷺ بِحُكْمَتِهِ. وَإِذَا بِثَلَاثَةِ مِنَ الْخُزْجِ يَأْتُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ: إِنَّ السَّارِقَ لَيْسَ مِنَّا، بَلْ هُوَ يَهُودِيٌّ، فَأَبْعَثْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُفْتِشُ عَنِ الدِّعِ فِي بَيْتِ الْيَهُودِيِّ. فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ يُفْتِشُ الْبَيْتَ، فَوَجَدُوا الدِّعَ فِي الْحَدِيقَةِ! فَطَلَبَ الْخُزْجُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبْرِئَ صَاحِبَهُمْ، وَأَنْ يُوبَّخَ الْأَوْسَ لِافْتِرَائِهِمُ الْبُهْتَانَ. فَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِنْبَرَ وَبَرَأَ الْمُتَّهَمَ الْخُزْجِيَّ، وَلَامَ الْأَوْسَ وَأَنْبَهُمُ، بَيْنَمَا الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: لَمْ أَسْرِقْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ الدِّعَ طُرِحَتْ عَلَيَّ.

وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بَانْتِهَاءِ الْفِتْنَةِ، وَنَامُوا مُرْتَاحِينَ. لَكِنْ يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ فَيَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودِيُّ بَرِيءٌ، وَالْخُزْجِيُّ هُوَ السَّارِقُ. وَأَعْلَنَ الرَّسُولُ ﷺ الْحَقِيقَةَ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَبَرَأَ الْيَهُودِيَّ وَأَثَبَتِ السَّرْقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِ.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْخُزْجِيَّ سَرَقَ الدِّعَ، وَحِينَ عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَفَ بِجَرِمَتِهِ، أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الدِّعِ، فَأَلْقَاهَا فِي حَدِيقَةِ الْيَهُودِيِّ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْخُرُجِ وَأَقْنَعَهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الْيَهُودِيَّ هُوَ سَارِقُ الدَّرْعِ.

فَهَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ أَرْوَاعِ أَمْثَلَةِ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي لَا يُجَايِ أَحَدًا وَلَا يَنْحَازُ إِلَّا لِلْحَقِّ.

وَقَدْ أَسَّسَ ﷺ قَاعِدَةً أَسَاسِيَّةً فِي إِقَامَةِ الْعَدْلِ فَقَالَ: الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ.  
فُلْتُ مُنْبَهَرًا:

- مَا أَعْدَلُهُ ﷺ! فَحَدِّثْنِي يَا جَدِّي عَنْ تَعَاوُنِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

- يَا بُنَيَّ، إِنَّ التَّعَاوُنَ بَيْنَ النَّاسِ يُفْضِي إِلَى مُجْتَمَعٍ مُتَمَاسِكٍ قَوَامُهُ التَّرَاحُمُ وَالتَّضَامُنُ. وَالتَّعَاوُنُ سَبَبٌ رَئِيسِيٌّ فِي اسْتِقْرَارِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَازْدِهَارِهَا.  
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"  
(المائدة 2)

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا (وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ).

وَقَالَ ﷺ: مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ.

وَقَالَ ﷺ: اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ مُنْذِجًا فِي مُجْتَمَعِهِ يُشَارِكُ فِي الْأَنْشِطَةِ الْجَمَاعِيَّةِ الْحَمِيدَةِ. أَتَذْكُرُ يَا بُنَيَّ قِصَّةَ اسْتِثْمَانِ قُرَيْشِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى أَمْوَالِهَا وَوَدَائِعِهَا؟

- نَعَمْ يَا جَدِّي، وَقَدْ كَانَ مِنْ ظُلْمِ زُعَمَاءِ قُرَيْشِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ فِي إِيْذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ ﷺ مَشْغُولًا بِرَدِّ وَدَائِعِهِمْ وَأَمَانَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ. فَمَا أَعْظَمَ خُلُقَهُ ﷺ!

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. لَقَدْ كَانَ أَمْرُ حِفْظِ أَمْوَالِ قُرَيْشِ وَوَدَائِعِهَا مَسْئُولِيَّةً جَسِيمَةً. فَمَا الَّذِي جَعَلَ الرَّسُولَ ﷺ يَقْبَلُ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ الْكَبِيرَةَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ؟ إِنَّهَا رَغْبَتُهُ فِي خِدْمَةِ مُجْتَمَعِهِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ حِفْظَ أَمْوَالِهِمْ وَالْإِطْمِئْنَانِ عَلَيْهَا.

- أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا فَاعِلًا فِي مُجْتَمَعِهِ يَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ لِلنَّاسِ وَيَحْمِلُ هُمُومَهُمْ. وَقَدْ قَرَّرْتُ عِنْدَمَا أَكْبُرُ أَنْ أَنْشُطَ فِي إِحْدَى الْجُمُعِيَّاتِ الْحَيْرِيَّةِ كَيْ أُسَاعِدَ النَّاسَ وَأَكُونَ غُنْصُرًا فَاعِلًا فِي الْمُجْتَمَعِ.

- أَحْسَنْتَ تَفَكِيرًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ عَالِيَةً وَطُمُوحَاتُهُ خَيْرَةً غَيْرَ أَنَانِيَّةٍ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ مُشَارَكَتِهِ ﷺ فِي الْحَيَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ أَنَّهُ شَارَكَ قَبْلَ بَعَثَتِهِ فِي حِلْفِ الْفُضُولِ، وَحِلْفِ الْفُضُولِ هُوَ اجْتِمَاعُ بَعْضِ قَبَائِلِ قُرَيْشِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَتَحَالُفُهُمْ عَلَى إِفْرَارِ الْعَدْلِ وَمُعَادَاةِ الظُّلْمِ وَرَدِّ الْحَقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا. فَتَعَاهَدُوا أَلَّا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا إِلَّا قَامُوا

مَعَهُ وَأَخَذُوا لَهُ حَقَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَهُ. فَسَمَّتْ قُرَيْشُ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ.  
 قَالَ ﷺ: لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ  
 حُمْرُ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ.  
 قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ مُنْفَتِحٌ يَقْبَلُ الْأَفْكَارَ الْخَيْرَةَ وَالْأَعْمَالَ  
 الْمُفِيدَةَ حَتَّى وَإِنْ كَانَ مَصْدَرُهَا مِنْ خَارِجِ الْإِسْلَامِ.  
 - نَعَمْ يَا بُنَيَّ، الْإِسْلَامُ دِينُ الْخَيْرِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَتَقَبَّلُ  
 الْمُبَادَرَاتِ الْحَسَنَةَ الْخَيْرَةَ مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهَا. وَالْإِسْلَامُ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْإِنْسَانِيَّةِ  
 بَلْ يَسْتَوْعِبُهَا. فَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلتَّعْلِيمِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلْأَمِّ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي ضِدَّ  
 الْعُنْصُرِيَّةِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلتَّسَامُحِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلْحِفَاطِ عَلَى الثَّرْوَةِ الْمَائِيَّةِ  
 كُلُّهَا أَفْكَارُ إِنْسَانِيَّةٍ خَيْرَةٍ لَا يَرْفُضُهَا الْإِسْلَامُ بَلْ يُبَارِكُهَا.  
 قَالَ ﷺ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.  
 وَقَالَ ﷺ: بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ تَعَاوُنِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ صَحَابَتِهِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ  
 إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ تَشَارُكُهُمْ فِي بِنَاءِ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وَهُوَ مَسْجِدُ قَبَاءٍ. فَكَانَ النَّبِيُّ  
 ﷺ يُشَارِكُ فِي الْبِنَاءِ فَيَحْمِلُ اللَّبَنَاتِ وَيَضَعُهَا فِي مَكَانِهَا مِنَ الْبُنْيَانِ.

وَعِنْدَ حَفْرِ الحَنْدَقِ، قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ  
مَجْمُوعَاتٍ، كُلُّ مَجْمُوعَةٍ تَخْفَرُ جُزْءًا مِنَ الحَنْدَقِ. وَكَانَ ﷺ يُشْرِفُ عَلَى  
الأَعْمَالِ وَيُشَارِكُ أَصْحَابَهُ فِي حَفْرِ الحَنْدَقِ وَحَمْلِ التُّرَابِ.

\* \* \* \* \*

## نبي الرحمة ﷺ

في الأسبوع المولي، قال جدي:

- إِنَّ الرَّحْمَةَ مِنْ أَنْبَلِ الْمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَجْمَلِهَا. فَالرَّحْمَةُ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُحْسِنُ إِلَى الْآخَرِينَ وَيَرْفُقُ بِهِمْ وَيَحْلُمُ عَنْهُمْ. وَمِنْ مَعَايِنِ الرَّحْمَةِ الرَّأْفَةُ وَلَيْنُ الْجَانِبِ وَالشَّفَقَةُ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمُشَارَكَتُهُمْ آلامَهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْقَاسِي الْعَلِيْظُ الْخَالِي مِنَ الرَّحْمَةِ فَهُوَ أَشْبَهُ بِحَجَرٍ صَلْدٍ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ" (الأعراف 156)

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ" (هود 90)  
وَقَالَ تَعَالَى: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت 34)

وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ قَلْبًا يَفِيضُ رَحْمَةً وَرِفْقًا وَحِلْمًا، فَهُوَ ﷺ يَرْجُو الْخَيْرَ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ. قَالَ تَعَالَى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء 107)

وَقَالَ ﷺ: الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ.



فَمِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَمَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

وَقَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ قَبِيلَةِ دَوْسٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ! فَدَعَا ﷺ قَائِلًا: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا. ثُمَّ قَالَ لِلطُّفَيْلِ: ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَارْفُقْ بِهِمْ.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ الْحَالِدَةَ لِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ مِنْ رِحْلَتِهِ إِلَى الطَّائِفِ وَمَوْقِفِهِ مَعَ قَوْمٍ ثَقِيفَ الَّذِينَ آذَوْهُ وَتَطَاوَلُوا عَلَيْهِ. فَقَدْ سَأَلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ (مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ). فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَطْلَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرَيْلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ (جَبَلَانِ حَوْلَ مَكَّةَ). فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا بِالضُّعَفَاءِ رَفِيقًا بِهِمْ. وَمِنْ ذَلِكَ رَحْمَتُهُ بِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَرَفَقَهُ بِهِمْ، وَالصُّفَّةُ مَكَانٌ مُظْلَلٌ فِي آخِرِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَأَهْلُ الصُّفَّةِ هُمْ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَنَازِلُ يَسْكُونُوهَا، فَكَانُوا يَأْوُونَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْمُظْلَلِ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ. فَعِنْدَمَا اسْتَقَرَّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، قَرَّبَ إِلَيْهِ أَهْلَ الصُّفَّةِ وَرَفَقَ بِهِمْ وَكَانَ يَزُورُهُمْ وَيُجَالِسُهُمْ وَيُطْعِمُهُمْ. وَقَالَ ﷺ: أَبْغُونِي ضِعْفَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضِعْفَائِكُمْ.

وَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ تُنْظِفُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا غَابَتْ سَأَلَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ: مَاتَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ ﷺ مُعَاتِبًا: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟ ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا. فَأَتَى ﷺ قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا.

- أَسْتَسْتَجِبْ يَا جَدِّي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا احْتِرَامُ عَامِلِ النَّظَافَةِ وَالرَّافَةِ بِهِ وَعَدَمُ احْتِقَارِهِ. فَعَمَلُهُ عَمَلٌ نَبِيلٌ، وَهُوَ يُسَاهِمُ فِي الْحِفَافِ عَلَى الْبَيْتَةِ وَتَجْمِيلِ الْمَحِيطِ.

- أَحْسَنْتَ قَوْلًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. وَقَدْ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلٌ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ. فَقَالَ ﷺ: أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ اِرْحَمِ الْيَتِيمَ وَامْسَحْ رَأْسَهُ وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ يَلِينَ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ. وَقَدْ حَثَّ ﷺ النَّاسَ عَلَى كِفَالَةِ الْيَتِيمِ، فَقَالَ: أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا (وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى).

وَمِنْ مَوَاقِفِ رَفَقِهِ بِالنَّاسِ وَحِلْمِهِ عَنْهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ مِنَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ جَهْلًا فِي الْمَسْجِدِ، فَتَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَسْهَرُوهُ، فَقَالَ هُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُسِيرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعْسِرِينَ.

وَمِنْ أَمْثَلِهِ رَحْمَتُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ جَنَازَةً مَرَّتْ بِهِ وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتِرَامًا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟

وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بُسْتَانًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ. فَلَمَّا رَأَى الْجَمْلُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنَ، وَقَالَ: لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ فَاتَى فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْنِبُهُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى جَذَعٍ مَنْصُوبٍ فِي الْمَسْجِدِ فَيَخْطُبُ فِي النَّاسِ، فَصَنَعَ لَهُ صَحَابِيٌّ مِنْبَرًا. فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، حَنَّ الْجَذَعُ وَأَنَّ لِفِرَاقِهِ. فَنَزَلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمِنْبَرِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْجَذَعِ يُرَبِّتُ عَلَيْهِ وَيَمْسَحُ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ، ثُمَّ احْتَضَنَهُ حَتَّى سَكَنَ، وَكَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَذَعُ فَخَبَّرَهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً فِي الدُّنْيَا لَا تَفْنَى حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَاخْتَارَ الْجَذَعُ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَنَّةِ. وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ

الْمُسْلِمِينَ! احْتَشَبْتُهُ نَحْنُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ، أَوْ لَيْسَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرْجُونَ لِقَاءَهُ أَحَقُّ أَنْ يَشْتَاقُوا إِلَيْهِ ﷺ؟

- مَا أَجْمَلَ رِفْقَ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّاسِ وَحِلْمَهُ عَنْهُمْ! وَمَا أَجْمَلَ رَحْمَتَهُ ﷺ! لَقَدْ شِمِلَتْ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَحَتَّى النَّبَاتَ! فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ دُعَاةِ الرِّفْقِ بِالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ أَيْضًا! أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ رَفِيقًا بِالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَلَا أُؤْذِيهَا، فَهِيَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ عَلَى كَوَكِبِ الْأَرْضِ، وَهِيَ ثَرَوَةٌ بَيْئَةٌ وَعَنْصُرٌ مِنْ عَنَاصِرِ جَمَالِ الْحَيَاةِ وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ رَوْنَقِهَا وَبَهَائِهَا.

- أَحَسَنْتَ فَهَمَّا يَا بُيَّ. أَتَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ عَنْ امْرَأَةٍ دَخَلَتْ النَّارَ لِأَنَّهَا عَذَّبَتْ هِرَّةً؟ إِذْ حَبَسَتْ الْمَرْأَةُ الْهِرَّةَ فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ الْقِطْعَةُ الْمِسْكِينَةُ هُزَالًا. كَمَا أَخْبَرَ ﷺ عَنْ امْرَأَةٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ لِأَنَّهَا سَقَتْ كَلْبًا يَلْهَثُ عَطْشًا.

- إِذَنْ فَالرَّأْفَةُ بِالْحَيَوَانَاتِ وَالرِّفْقُ بِهَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ. سُبْحَانَ اللَّهِ! - سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ. بَلْ إِنَّ رَحْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ شِمِلَتْ حَتَّى الْجُمَادَ، يَقُولُ ﷺ عَنْ جَبَلٍ أُحَدِّدُ: إِنَّ أُحَدًّا جَبَلٌ يُجِنُّا وَنُجْبُهُ.

وَلِلرَّسُولِ ﷺ مَوَاقِفُ جَلِيلَةٍ خَالِدَةٌ يَوْمَ فَتَحِ مَكَّةَ. أَتَذْكُرُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ عِنْدَمَا حَدَّثْتُكَ عَنْ إِيْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ إِيْدَاءً شَدِيدًا؟ حَسَبَ رَأْيِكَ مَا الَّذِي سَيَفْعَلُهُ بِهِمْ عِنْدَمَا يَدْخُلُ مَكَّةَ غَزِيرًا مُتَصِرًا؟

- رُبَّمَا يَعْقِبُهُمْ أَوْ يَسْجُنُهُمْ، أَوْ رُبَّمَا يَنْفِيهِمْ خَارِجَ مَكَّةَ جَزَاءَ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، أَوْ يَلُومُهُمْ عَلَى الْأَقْلِ وَيُعَاتِبُهُمْ وَيَذَكِّرُهُمْ بِمَسَاوِيهِمْ!

- لَقَدْ أَصْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَفْوَاً عَامًّا شَامِلًا عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، فِيهِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَوْمِ النَّصْرِ الْعَزِيزِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ، دَخَلَ ﷺ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ خَافِضٌ رَأْسَهُ تَوَاضَعًا لِلَّهِ. وَقَدْ أَخَذَتِ الْحَمَاسَةُ أَحَدَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ فَهَتَفَتْ: الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ! فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ مُصَحِّحًا: بَلْ الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَرْحَمَةِ. حَتَّى أَنْ أَبَا سُفْيَانَ وَقَدْ كَانَ مِنْ أَلَدِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَتِمَّا لَكَ نَفْسُهُ أَمَامَ عَظَمَةِ الْخُلُقِ النَّبَوِيِّ فَقَالَ مُقِرًّا: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَوْصَلَكَ وَأَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ!

فَهَا نَحْنُ يَا بُنَيَّ نَتَحَدَّثُ عَنْ سِيرَةِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ مِنْذُ أَسَابِعَ، لَكِنْ كُلُّ حَدِيثِنَا غَيْضٌ مِنْ فَيْضِ أَخْلَاقِهِ ﷺ وَشَمَائِلِهِ. فَسِيرَتُهُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ مَعِينٌ رَقْرَاقٌ لَا يَنْضَبُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّمَائِلِ.

أَطْرَقْتُ مُفَكِّرًا فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، مُنْهَرًا بِشَخْصِيَّتِهِ الْعَظِيمَةِ، عَازِمًا أَنْ يَكُونَ قُدُّوَتِي وَأُسُوَتِي. ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا بِجَدِّي عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ. فَتَسَاءَلْتُ مُحْتَارًا:

- مَا يُبْكِيكَ يَا جَدِّي؟

- إِنَّهَا دُمُوعُ الشُّوقِ وَالْحَنِينِ لِلصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. أَتَعْلَمُ أَنَّهُ ﷺ اشْتَأَقَ إِلَيْنَا؟ فَقَدْ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلصَّحَابَةِ الْكَرَامِ: وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ

إِخْوَانِي. فَقَالَ الصَّحَابَةُ الْكَرَامُ: أَوْ لَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني.

ثُمَّ مَسَحَ جَدِّي دُمُوعَهُ وَقَالَكَ نَفْسَهُ، وَقَالَ مُبْتَسِمًا:

- أَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ. وَسَلَوَانَا فِي حَدِيثِهِ الْمُنْفَرِحِ الْبَهِيحِ إِذْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَلَنَحِبَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ كُلِّ قُلُوبِنَا عَسَى أَنْ نَلْقَاهُ عَلَى الْحَوْضِ فَنَشْرَبَ مِنْ يَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرْبَةً لَا نَظْمًا بَعْدَهَا أَبَدًا، وَنَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ بِإِذْنِ اللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ. وَدَلِيلُ حُبِّنَا لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ نَهْتَدِيَ بِهَدَاهُ وَنَتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ وَنَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ

كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب 21)

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا.

وَالآنَ أَخْبِرْنِي يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

هَتَفْتُ مُنْشَرِحًا:

- نَعَمْ يَا جَدِّي! لَقَدْ صِرْتُ أَعْشَقُهُ، وَقَرَّرْتُ أَنْ يَكُونَ قُدُّوتِي وَأُسُوتِي، فَسَأَعْمَلُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ وَخِصَالِهِ النَّبِيلَةِ. وَعِنْدَمَا أَكْبُرُ سَأَقْرَأُ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُتُبِ عَنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَسْتَفِيدَ مِنَ الدُّرُوسِ الْعَظِيمَةِ وَالْعِبَرِ الْجَلِيلَةِ.

كُلُّ الْقُلُوبِ إِلَى الْحَبِيبِ تَمِيلُ - - وَمَعِيَ بِهِذَا شَاهِدٌ وَدَلِيلُ  
 أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّدًا - - صَارَتْ دُمُوعُ الْعَارِفِينَ تَسِيلُ  
 هَذَا رَسُولُ اللَّهِ نَبْرَاسُ الْهُدَى - - هَذَا لِكُلِّ الْعَالَمِينَ رَسُولُ  
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا عَلَمَ الْهُدَى - - مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ وَسَارَ دَلِيلُ

## الفهرس

6 ..... مقّمة

10 ..... التّواضع والصدّق والأمانة

20 ..... الحياء والوفاء

26 ..... القناعة والكرم

31 ..... الصّبر والتّفاؤل

41 ..... الحكمة والشّجاعة

49 ..... العدل والتّعاون

56 ..... نبّي الرّحمة ﷺ